## المحاضرة الرابعة احتكاك العرب بالأمم المجاورة وأثره في الحركة الأدبية والعلمية

**مدخل:**

لقد تطور الأدب في العصر العباسي تطورا بلغ أو وذروته، ولاريب أن الذي أحل الأدب العربي في تلك المكانة الرفيعة والمنزلة العظمى هو ذلك التمازج والتلقيح الفكري بين الحضارة الوافدة الجديدة والحياة العربية الأصيلة. وقد كان لذلك العنصر الوافد أدب يعتز به، وبيان يحبه، وفكر يتمسك به ولا يرضى عنه بديلا. كما كان العربي الأصيل ينظر إلى أدبه ولغته وبيانه نظرته إلى عرضه الذي يقاتل دونه ويذوذ عنه. وهذا ما أحدث صراعا أنتج جيلا جديدا في البيان واللسان، والرأي والفكر، والإبداع، والتصوير، والجرس والموسيقى، لم يكن للعربي عهد به من قبل، وقد يعزى ذلك كله إلى الحضارة والعلوم والمعارف الفلسفية التي جاء بها هؤلاء الذين وفدوا على العرب وانضموا إليهم من فرس وغيرهم. فكان من هؤلاء الوافدين كبار الشعراء والكتاب والوزراء ورؤساء الدواوين واللغويون البارعون والمتصدرون للتدريس والإفتاء. ونتيجة ذلك زخرت المكتبات العربية فيما بعد بدواوين ومؤلفات في علوم اللسان والمعاجم الضخمة التي خدمت كتاب الله الكريم وسنة رسوله العظيم صلى الله علية وسلم.

**الاحتكاك بالأمم المجاورة ودوره في نشأة الحضارة العربية الإسلامية**

لقد كان لهذه الشعوب والأعراق التي دخلت في دين الله أفواجا وبالأخص العنصر الفارسي دور فعال في بناء الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة التي قامت على أكتافهم و بمجهوداتهم ، وكان لهم الفضل الأكبر على اللغة العربية والأدب العربي، ويظهر ذلك فيما خلفوه من ما نلمحه من آثار طيبة في بروز تيار شعر المعنى والحكمة أمثال المتنبي وأبي تمام ، و المعري وغيرهم حتى قيل:" أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري"

وعلى هذا نقول إن العصر العباسي يعد محطة كبرى في تاريخ الأدب العربي الزاهر. ففي هذا العصر بلغ المسلمون من العمران و السلطان مالم يبلغوه من قبل ولا من بعد، وأثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزهت الآداب العربية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل فوجد سبيلا إلى البحث ومجالا للتفكير. إن البيئة العربية لم تنقلب فجأة، بل بدأ التغير فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار

العالم في الشرق والغرب، ومنذ أخذ الإسلام ينتشر بين غير العرب، ومنذ شرع البدو يتخلون عن سكنى البادية، وينزلون الحاضرة ، وقد نتج عن ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم واقتباسهم أمورا كثيرة من أوجه الحضارة المادية ومن أساليب التفكير.ثم إن الموالي الأولين احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم وعاداتهم في الجدال خاصة ، وأخذوا يتساءلون عن كثير مما في الإسلام من فروض وأحكام وعقائد - بعد الموازنة بينها وبين ما عرفوا في أديانهم القديمة - كالتفريق بين ذات الله وصفاته، والبحث في شأن الجنة والنار، وفي أعمال الإنسان، وهل هو مجبر على أعماله. وهكذا حتى نشأت منذ أواسط العصر الأموي حركة الاعتزال، ثم اتسعت في العصر العباسي اتساعا كبيرا. ولم يضق صدر الإسلام بهذه الحركة، لأنها حركة أصيلة فيه، ولكن أهل الدولة حملوا الأمرعلى ظاهره، فكانوا إذا ضاقوا بخصم سياسي ثم وجدوا عنده شيئا من حرية التفكير، قالوا إنه زنديق، وأخذوه في الظاهر بهذه التهمة بينما هم كانوا في باطنهم ينتقمون من خصومته السياسية.

وبما أن الدولة العباسية قامت على سيوف الخراسانيين من الفرس الذين كانوا سندا لهم على نيل الخلافة، فلم يكن مستغربا بأن يلقي العباسيون قياد دولتهم إلى الفرس جملة، حتى أصبحت الدولة العباسية فارسية في كل شئ، وحتى أصبح الفرس والخراسانيون خاصة يدعون "أبناء الدولة" فأثار ذلك نقمة العرب والشيعة منهم خاصة على العباسيين.

وقد كان لهذه الاتجاهات الخارجة على الأصول الدينية الإسلامية الثابثة آثارها في آداب العصر شعره ونثره، سلبا أو إيجابا، فقد تناقلتها الكتب وعرضت للآراء بالشرح والرد والتعقيب والتجريح، كما ظهرت آثارها في الشعر بأنماط متباينة.

وقد أثرى النشاط الثقافي والعلمي خصوصا في مجال الترجمة،وكذا ما نقل من الكتب عن الأمم المختلفة من فرس ويونان وهنود، وأشهر النقلة والمترجمين سرجيس بن إلياس الرومي، ويحيى أبو يوحنا البطريق وإسحاق بن حنين.

وكثرت الترجمة وازدهرت في عصر المأمون لاهتمامه بالثقافات الأجنبية وضرورة نقل علوم الأمم الأخرى وبخاصة علم اليونان، وترجمت في عصره والعصور التالية عشرات بل مئات الكتب التي أفادت الثقافة الإسلامية، مما أسهم في تقدم العلوم العقلية والطبيعية والهندسية والفلك والرياضيات بل وساعدت كثيرا في تطور وازدهار العلوم الشرعية، كما لعب علم التاريخ دورا هاما في التعرف على

الأمم السابقة من فرس ويونان ومصريين وعرب قدماء. وكان تاريخ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمة ما ألف في هذا العلم، وجمع ابن إسحاق سفرا كبيرا، ضمنه كثير من الحقائق إلى بعض المرويات، التي وقف أمامها العلماء موقف الانتقاد والتقويم.

ومن العلوم التي ظهرت آثارها وبدأت تأخذ مكانها في الفكر الإسلامي، علم الفلسفة على يد فيلسوف العرب، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الذي عاصر المأمون ببغداد، ويعد واحدا من أكبر المفكرين والحكماء، وترجم للمأمون والمعتصم عدة كتب عن اليونانية. واتصل بالمعتزلة فاضطهد أيام المتوكل وتوفي بعد سنة 256هـ.

**أثار الاحتكاك بالأمم المجاورة في الأدب واللغة:**

أما عن اللغة والأدب، فقد استوجب معرفة تفسير القرآن، وتفهم معانيه، معرفة اللغة وبخاصة ممن دخلوا الإسلام من الشعوب غير العربية واستعربوا، من هنا أقبل الفرس وغيرهم على تعلم اللغة العربية، وبدأت دراسات ضبط الإعراب وتقويم التراكيب والأساليب بنشأة علم النحو. وظهرت في النحو مدرستان متميزتان وهما: مدرسة البصرة و مدرسة الكوفة، فأما مدرسة فتقوم على القياس وتعتمد المنطق في أحكام القياس، على رأسها سيبويه، ويقوم مذهب مدرسة الكوفة على السماع والتسليم بما ينطق به العرب ما دام صحيحا حتى ولو لم يخضع للقياس، وعلى رأسهم الكساني

وبعد انتقال كثير من علماء المدرستين إلى بغداد، نشأ اتجاه ثالث توفيقي عماده الأخذ بكل من الجانبين وعرف بالمدرسة البغدادية. ولاشك أن هذا النشاط اللغوي أثر في اتجاهات أخرى، كاتجاه جمع الشعر القديم للاستشهاد به، أو للتأديب، وتقويم اللسان، وقد كان بعض العلماء ينصحون الشعراء المولدين بحفظ كثير من الشعر، ومنه ما عرف عن نصح خلف الأحمر لتلميذه أبي نواس الحسن بن هانئ بحفظ الشعر القديم ومحاولة بناء شعره على نسقه.

كما شهدت دراسات العلوم اللغوية والنحوية، في العصرالعباسي ثورة واسعة ضخمة على أيدي علماء البصرة والكوفة الذين حققوا إنجازات وابتكارات علمية في هذا المجال للحفاظ على كلام العرب وتقويم اللسان العربي، بعد أن فشا اللحن في كلام المسلمين، نتيجة لاختلاطهم بالأعاجم في لهذا قام هؤلاء العلماء بجمع وتدوين ألفاظ اللغة العربية وأشعارها من منابعها إلى البلاد المفتوحةإلى

الصافية في نجد بقلب الجزيرة العربية. كذلك وضعوا قواعد نحوية للغة العربية، وابتكروا النقط والشكل على الحروف لمعرفة نطق الكلمات نطقاً سليماً، ولا سيما القرآن الكريم، حتى لا يتعرض للتحريف. هذا إلى جانب تصنيف المعاجم اللغوية، ووضع علم العروض لمعرفة أوزان الشعر وأحكامه وبحوره. ومن أشهر الرواد الذين حققوا هذه الابتكارات العلمية مع بداية العصر العباسي الخليل بن أحمد الفراهيدي" ت 175هـ" وتلميذه " سيبويه "ت 177 هـ"

ولم تلبث العاصمة بغداد أن شاركت في هذه النهضة العلمية، حيث انتقل إليها عدد من علماء أمثال المفضل الضبي " و"الكسائي" و "الفراء "، و"ابن السكيت "، بحيث صارت بغداد مسرحاً لمناظرات علمية حامية الوطيس بين أشهر علماء العصر. وحرص بعض رواد الأدب واللغة على جمع كثير من النماذج الممتازة وعرضها وبيان جوانبها اللغوية والبيانية فيما ألفوه من الكتب المعنية بهذا الجانب، والتي اعتبرت من بعد من عدة الأديب، كالبيان والتبيين، وعيون الأخبار، وأدب الكاتب، والكامل. كما جمعت مختارات من شعر القدماء والمحدثين ليقف عليها الناشئة في الأدب والشعر ويتأدب بها، وليأخذوا بما فيها من المعاني والحكم وصنعة الكلام ومن هذه المجموعات: المفضليات، والأصمعيات، وحماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، يضاف إليها جمهرة أشعر العرب لأبي يزيد القرشي، والنوادر لأبي علي القالي .

أما الأدب، فقد تطور هو الآخر في العصر العباسي تطوراً كبيراً، ونهج الشعراء فيه مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب والأخيلة، وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ، ومن أشهر هؤلاء الشعراء:" أبو نواس " الذي ذاعت قصائده في الخمر والغزل والصيد..و أبو تمام الطائي " المشهور بنزعته العقلية" وتلميذه

أبو عبادة البحتري " صاحب المدائح الخالدة والوصف البديع ، و"ابن الرومي " المعروف " بطول نفسه وغزارة شعره، و" أبو العتاهية" الذي بالزهد والحكمة ، والمتنبي، الذي اشتهر بالفخر، وأبو العلاء المعري، شاعر اللعقل والفلسفة والحكمة، وغيرهم كثيرون.

ويكفي أن نشير إلى ما قاله الشاعر "عبد الله بن المعتز (ت 296 هـ) " في كتابه "طبقات الشعراء" من أن عدد شعراء الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث الهجري فقط بلغ أكثر من مئة

وثلاثين شاعراً. هذا إلى جانب الشاعرات والأديبات من النساء اللائى لعبن دوراً هاماً في الحياة الأدبية وفي الأحداث المهمة في المجتمع الإسلامي مثل "رابعة العدوية" التي سلكت طريق الزهد والتصوف والأميرة "علية بنت المهدي " التي وصفها "الحصري " بأنها "تعدل الكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن المقال، ولها شعر رائق وغناء رائع ". ومثل الأميرة "العباسة بنت المهدي " إذ تروى لها أشعار تدل على ذكاء وحسن تأت للموضوع الذي تقصد إليه. ومثل "عابدة الجهنية" التي قال عنها "السيوطي " :أنها "أديبة شاعرة فصيحة فاضلة وكاتبة"

وخلاصة القول: إن مظاهر الحياة الحضارية قد اتسعت أمام العرب في العصر العباسي، بفضل تأثرهم واحتكاكهم بشعوب الأمم الأخرى، وقد أدى ذلك إلى امتزاج المعارف وتنوعها، وقد تجلت هته المظاهر في العادات الجديدة التي أصبحت تطغى في الحياة اليومية للعرب كالمأكل و الملبس. فكان لابد لهذا التحضر والازدهار في مظاهر الحياة الاجتماعية والاتساع في المعرفة، أن يكون له انعكاس على الحياة الأدبية وخاصة الشعر.

المراجع:

1- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي .. الأعصر العباسية .. الأدب المحدث إلى آخر القرن الرابع هـ
2- محمد زغلول: الأدب في عصر العباسيين "منذ قيام الدولة حتى نهاية القرن الثالث "..
3- د مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي..
4- موقع" ويكي الكتب " على الشابكة
5 "موقع ديوان العرب" على الشابكة